الفصل الخامس
غَزْوَةُ أُحُد
السبت ١٥ شوال ٣ هـ - ٣٠ مارس ٦٢٥ م[١]

المبحث الأول
ملخص الغزوة

سببها أن قريشًا أرادت أن تثأر ليوم بدر، فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم سبع عشرة امرأة لتحميس الجنود، ثم ساروا حتى وصلوا شمال المدينة على بعد ميلين منها قرب جبل أحد، ونزل الرسول ﷺ على رأي الجماعة، وقرر الخروج بالجيش لملاقاة العدو خارج المدينة عند أحد، في نحو ألف من المسلمين .. وفي منتصف الطريق انخذل عن المسلمين جماعة من المنافقين بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول، فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول ﷺ حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل كتيبة منه قائدًا، واختار خمسين من الرماة، ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وحذرهم من ترك موقعهم مهما كانت نتائج المعركة.. ثم ابتدأ القتال، وكانت الدائرة للجيش الإسلامي في أول المعركة، حتى فر معظم الجيش الوثني وولوا الأدبار، فانغمس المسلمون في أخذ الغنائم وترك الرماة أماكنهم، ورأى خالد بن الوليد - وكان قائد ميمنة المشركين - خلو ظهر المسلمين من الرماة، فكرَّ عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وفر بعضهم عائدا إلى المدينة، وانهزم المسلمون، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله .. ومثِّل المشركون بجثث قتلى المسلمين في نهاية المعركة .

---

١ هذا التاريخ الذي التقى فيه الطرفان في ساحة القتال، أما تاريخ خروج الجيش الإسلامي من المدينة فهو الجمعة ٧شوال ٣ هـ - ٢٢ مارس ٦٢٥

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : نزول القائد على رأي الجماعة :

أشار النبي - ﷺ - على قادة الجيش في الخروج أو البقاء، ومعبرًا عن رأيه قائلاً: " إنا في جنة حصينة"١ ، "فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مُقَامٍ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا"٢ .. وَكَانَ رَأْيُ عَبْدِ اللهّ بْنِ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ مَعَ رَأْيِ رَسُولِ اللهّ ﷺ يَرَى رَأْيُهُ فِي ذَلِكَ وألا يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهّ - ﷺ - يفضل التحصن بالمدينة، وبالقاء بها والاستعاد لحرب الشوارع. فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِمّنْ كَانَ فَاتَهُ بَدْرٌ : يَا رَسُولَ اللهّ اُخْرُجْ بِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا ، لَا يَرَوْنَ أَنّا جَبُنّا عَنْهُمْ وَضَعُفْنَا ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ : يَا رَسُولَ اللهّ أَقِمْ بِالْمَدِينَةِ لَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ فَوَاَللهّ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوّ لَنَا قَطّ إِلّا أَصَابَ مِنّا ، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا إِلّا أَصَبْنَا مِنْهُ فَدَعْهُمْ يَا رَسُولَ اللهّ فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مَحْبِسٍ وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمْ الرّجَالُ فِي وَجْهِهِمْ وَرَمَاهُمْ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كَمَا جَاءُوا . فبادر قطاع كبير من فضلاء الصحابة - ممن فاته بدر - وأشاروا على رسول اللهَّ بالخروج . وألحوا عليه .. وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب، الذي كان قد أبلي أحسن بلاءً في معركة بدر ـ فقد قال للنبي ﷺ : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة . فَلَمْ يَزَلْ النّاسُ بِرَسُولِ اللهّ ﷺ حَتّى دَخَلَ رَسُولُ اللهّ ﷺ بَيْتَهُ فَلَبِسَ لأْمَتَهُ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَيْنَ فَرَغَ مِنْ الصّلَاةِ . ثُمّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ - في كامل عدته وسلاحه مدججًا - وَقَدْ نَدِمَ النّاسُ وَقَالُوا : اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ اللهّ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا ذَلِكَ . فَلَمّا خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهّ ﷺ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهّ اسْتَكْرَهْنَاك وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا ، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ صَلّى اللهُ عَلَيْك ، فَقَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ : " مَا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إِذَا لَبِسَ لأْمَته٣ أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ "٤

ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللهّ ﷺ : "اُنْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتّبِعُوهُ، امْضُوا عَلَى اسْمِ اللهّ فَلَكُمْ

---

١ انظر: الطبري ٢/ ٦٠

٢ ابن هشام ٢ / ٦٣

٣ أى درعه

٤ ابن هشام ٢ / ٦٣، و محمد بن عبد الوهاب٢٤٠

النّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ ."[1]..

ونزل رَسُولُ اللهّ -ﷺ- على رأي الجماعة، وعلم الله أنه ما به إليهم من حاجة .. ولكن ليستن به من بعده من القادة ،كما قال الحسن رحمه الله[2]، وخرج بالجيش نحو أُحد .

يتجلى هنا المبدأ الذى كان رسول الله ﷺ يأخذ به نفسه وهو إلتزام التشاور مع أصحابه فى كل أمر يحتمل المشاورة و البحث[3]، ومبدأ الشورى مبدأ عظيم وأصل أصيل في قوام الدولة الإسلامية، لا سيما في أمور الحرب، والتشاور سمة أساسية في أخلاق القائد الإسلامي الناجح . و" الفرق بين الحكم الإسلامي العادل الرشيد وبين الحكم الاستبدادي ترك الشورى"[4]

ومن الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام.. وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي، فإنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع[5]

المطلب الثاني : من صفات المنافقين الانخذال عن الأمة وقت الشدة :

لما وصل الجيش الإسلامي إلى الشّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ ، انْخَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللهّ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ بِثُلُثِ الجيش وَقَالَ: أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصاني[6]، مَا نَدْرِي عَلَامَ

---

١ الواقدي ١ / ٢١٤

٢ علي بن عبدالخالق القرني ٢٠

٣ محمد سعيد رمضان البوطي ١٧٧

٤ فريد عبد الخالق : في الفقه السياسي الإسلامي ٤١

٥ انظر: علي محمد الصلابي ٢/ ٨٦، وأكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٣٨٠.

٦ الصالحي ٤ / ١٨٨

نَقْتُل أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيّهَا النّاسُ ! ؟ فَرَجَعَ بِمَنْ اتّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ النّفَاقِ وَالرّيْبِ، وحاول عَبْدُ اللهّ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ ـ والد جابر بن عبد الله ـ تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم الشرعي والوطني في هذا الظرف الحساس، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول :يَا قَوْمِ أُذَكّرُكُمْ اللهّ ألا تَخْذُلُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيّكُمْ عِنْدَمَا حَضَرَ مِنْ عَدُوّهِمْ ! فَقَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ وَلَكِنّا لَا نَرَى أَنّهُ يَكُونُ قِتَالٌ . فَلَمّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إلّا الِانْصِرَافَ عَنْهُمْ قَالَ : أَبْعَدَكُمْ اللهُ أَعْدَاءَ اللهّ فَسَيُغْنِي اللهُ عَنْكُمْ نَبِيّهُ١ .

وأنزل الله تعالى: "مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ "[آل عمران ١٧٩] قال مجاهد: " ميزهم يوم أحد " وهم المرادون بقوله تعالى: "وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهّ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ " [آل عمران ١٦٧].٢

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى . ولو كان هذا هو السبب لا نعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد ـ في ذلك الظرف الدقيق ـ أن يحدث البلبلة والاضطراب في الجيش الإسلامي على مرأي ومسمع من عدوهم،حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه٣ .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان ـ بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج ـ أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سري فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب٤، وعنهما يقول الله تعالي : " إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " [آل عمران : ١٢٢].

---

١ ابن هشام ٢ / ٦٤

٢ الصالحي ٤ / ١٨٨

٣ صفي الرحمن المباركفوري ١٩٦

٤ صفي الرحمن المباركفوري ١٩٦

المطلب الثالث : عدم القتال إلا بأمر القائد :

لما نزل رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، في الشعب من أحُد في عُدوة الوادي إلى الجبل، وصف جيشه ووزع المهام على القادة والكتائب، قال:" لا يُقَاتِلُنّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتّى نَأْمُرُهُ بِالْقِتَالِ "١.

فلا بد من توحيد القيادة، واحترام القائد والسمع له والطاعة في غير معصية . ثم إن التهور في المبادءة قد يترتب عليه ضررًا يلحق بالجيش كله، واهتزاز صورة القائد أمام جموع الجنود، والخروج على العرف العام في القتال، حيث تكون إشارة البدأ وكلمة الانطلاق من القائد العام وحده.

المطلب الرابع : وضوح المهام والتعليمات :

من الآداب النبوية في القتال، قيام القائد بتوضيح المهام لجنوده غاية التوضيح وغياة التبيين، لاسيما قبل المعركة ، ويؤكد عليها من حين إلى آخر على مسامع الجند، وذلك حتى لا ينسى الغافل ولا يتعلل الفاشل ولا يتشوش الأمر على الساهي.

ونجد هذا المبدأ واضحًا جليًا في التعليمات التي وجهها للرماة :

فلما أمرَّ رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير، قال لجماعة الرماة: "إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ "٢ ..

وأكد الأمر مرارًا وتكرارًا بقوله : "الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم"٣ !

المطلب الخامس : حسن النظام والتنظيم :

إن من أشد الأسلحة التي ترهب العدو النظام ودقة الصفوف وسهولة التنسيق في

١ابن هشام ٢ / ٦٥، السهيلي ٣ / ص ٢٤٦، الطبري ١ / ٤٧١

٢ صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٢٨١٢)

٣ الحلبي ٢/ ٤٩٦، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٩٢

الجيش الآخر .. فقد جَعَلَ رَسُولُ اللهّ ﷺ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ في أرض المعركة، يُسَوّي الصّفُوفَ، وَيُبَوّئُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ، يَقُولُ : "تَقَدّمْ يَا فُلَانٌ وَتَأَخّرْ يَا فُلَانٌ... " حَتّى إنّهُ لَيَرَى مَنْكِبَ الرّجُلِ خَارِجًا فَيُؤَخّرُهُ فَهُوَ يُقَوّمُهُمْ كَأَنّمَا يُقَوّمُ بِهِمْ الْقِدَاحَ حَتّى إذَا اسْتَوَتْ الصّفُوفُ سَأَلَ مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قِيلَ بَنُو عَبْدِ الدّارِ . قَالَ نَحْنُ أَحَقّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ . أَيْنَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ؟ قَالَ هَا أَنَا ذَا قَالَ خُذْ اللّوَاءَ . فَأَخَذَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، فَتَقَدّمَ بِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهّ ﷺ[1] .

ولقد وضع النبي ﷺ خطة محكمة لمواجهة الجيش الوثني، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقيادة، ورد والصغار وأصحاب الأعذار ، واختار خمسين رجلاً من الرماة المخضرمين ، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، هي:

١ – كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير – رضي الله عنه –.

٢ – كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر – رضي الله عنه–.

٣– كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير – رضي الله عنه.

وبهذا الموقف الفذ؛ ضرب رسولنا الكريم المثل الأعلى في مبدء حسن النظام والتنظيم في الحرب.

المطلب السادس : أهمية التوجيهات الأخلاقية والإيمانية قبل المعركة :

إن العرف في الحروب القذرة، هو تحميس الجنود على السلب والنهب وهتك الأعراض وسفك الدماء بلا رحمة أو مراعاة لطفل أو امرأة أو شيخ .. نلحظ ذلك في حروب الماضي والحاضر، وخير شاهد على الماضي تلك الحروب الصليبية التي أوصت بقتل الأطفال والشيوخ والنساء بل وقتل الحجاج والنساك، أما الحاضر، فليست حروب الصهاينة في فلسطين منا ببعيد، حيث هدم منازل الأبرياء، وتجريف المزارع، وضرب المساجد بالصواريخ، وقتل الأطفال والنساء ..

أم في أصول الحرب عند نبي الرحمة ﷺ نجد أنه لما صف الصفوف في أحد قبل المعركة ، قَامَ فَخَطَبَ الجيش،وأوصى الجيش بالتقوى وجملة من فضائل الأخلاق فَقَالَ :

" يَا أَيّهَا النّاسُ أُوصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتّنَاهِي عَنْ

---

١ الواقدي ٢٢١

مَحَارِمِهِ . ثُمّ إنّكُمْ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِ أَجْرٍ وَذُخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ الّذِي عَلَيْهِ ثُمّ وَطّنَ نَفْسَهُ لَهُ عَلَى الصّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْجِدّ وَالنّشَاطِ فَإِنّ جِهَادَ الْعَدُوّ شَدِيدٌ شَدِيدٌ كَرْبُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ – إلّا مَنْ عَزَمَ اللهُ رُشْدَهُ – فَإِنّ اللهّ مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنّ الشّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ، فَافْتَتِحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْتَمِسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ اللهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فَإِنّي حَرِيصٌ عَلَى رُشْدِكُمْ فَإِنّ الِاخْتِلَافَ وَالتّنَازُعَ وَالتّثْبِيطَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضّعْفِ مِمّا لَا يُحِبّ اللهُ وَلَا يُعْطِي عَلَيْهِ النّصْرَ وَلَا الظّفَرَ . يَا أَيّهَا النّاسُ ! جُدّدَ فِي صَدْرِي أَنّ مَنْ كَانَ عَلَى حَرَامٍ فَرّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَمَنْ رَغِبَ لَهُ عَنْهُ غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ، وَمَنْ صَلّى عَلَيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَمَلَائِكَتُهُ عَشْرًا ، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهّ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ أَوْ آجِلِ آخِرَتِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللهّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إلّا صَبِيّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَبْدًا مَمْلُوكًا ، وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا اسْتَغْنَى اللهُ عَنْهُ وَاَللهُ غَنِيّ حَمِيدٌ . مَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى اللهّ إلّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَلَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى النّارِ إلّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ . وَإِنّهُ قَدْ نَفَثَ فِي رُوعِي الرّوحُ الْأَمِينُ أَنّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا ، لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا . فَاتّقُوا اللهّ رَبّكُمْ وَأَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الرّزْقِ وَلَا يَحْمِلَنكُمْ اسْتِبْطَاؤُهُ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبّكُمْ فَإِنّهُ لَا يُقْدَرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إلّا بِطَاعَتِهِ . قَدْ بَيّنَ لَكُمْ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ غَيْرَ أَنّ بَيْنَهُمَا شَبَهًا مِنْ الْأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنْ النّاسِ إلّا مَنْ عَصَمَ فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرّاعِي إلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ . وَلَيْسَ مَلِكٌ إلّا وَلَهُ حِمًى ، أَلَا وَإِنّ حِمَى اللهّ مَحَارِمُهُ . وَالْمُؤْمِنُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ كَالرّأْسِ مِنْ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكَى تَدَاعَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ . وَالسّلَامُ عَلَيْكُمْ "[1].

ويستفاد من هذه الخطبة عدة دروس منها:

١- خطورة المعاصي والكبائر على الجيش

٢- أهمية الجد والنشاط في ساحة الحرب

٢- ضرورة الصبر والمثابرة عند قتال الأعداء.

٣- خطر الاختلاف والتنازع على الجيش.

٤- أهمية الأخوة الحب في الله بين الجنود .

٦- أهمية عقيدة القضاء والقدر في وجدان الجنود .

---

١ الواقدي ٢٢٢، والصالحي ٤ / ١٨٩، ١٩٠

٧- ضرورة المحافظة على الذكر والأوراد والصلاة على النبي ﷺ

٨- ضرورة الابتاعد الشبهات .

المطلب السابع : أخلاقيات المبارزة :

لما ترآى الجمعان، صاح طلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين، قائلا: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة! فهل منكم أحد يعجِّله الله بسيفي إلى الجنة! أو يعجِّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب، فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجِّلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجِّلني بسيفك إلى الجنة! فضربه علي فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم! فتركه.

فكبّر رسول الله - ﷺ، وقيل لعليّ: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه١ .

ثمة مشهد نقف أمامه يعد من مفاخر السيرة العسكرية في العهد النبوي، ذلك العهد الذي تخرج فيه من مدرسة محمد ﷺأمثال هؤلاء الرجال الأبطال، الذين يقاتلون من أجل راية الله لا من أجل راية نفس أو منصب أو جاه، وهم مع ذلك يعلون من القيم الأخلاقية والشهامة حتى في أثناء طاحونة الحرب ودوامة المعركة . لا ينسون " الأخلاق" حتى في أشد اللحظات. وذلك بلا شك يبين طبيعة النبت الذي ينمو ويربو في بيئة إسلامية تعلي مكارم الإخلاق تحت قيادة نبي بُعث ليتممها !

المطلب الثامن : الهزيمة في دبر المعصية ومخالفة الجندي لقائده :

بعدما أكد النَّبِيُّ ﷺ على الرماة بعدم ترك أماكنهم مهما كانت الظروف، وانهزم المشركون في أول المعركة، قَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهَّ بْنِ جُبَيْرٍ : الْغَنِيمَةَ!... ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ ؟ ! فَقَالَ عَبْدُ اللهَّ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللهَّ ﷺ ؟ قَالُوا : وَاللهَّ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنْ الْغَنِيمَةِ٢ !

ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر مواقعهم من الجبل، والتحقوا بالجيش ليشاركوه في

---

١ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١ / ٢٩٤، الطبري ١ / ٤٧٢ .

٢ صحيح البخاري، كتاب المغازي والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه ٢٨١٢

جمع الغنائم . وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا عَبْدُ اللهَّ بْنُ جُبَيْرٍ وحوالي تسعة من الرماة والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء .. وانتهز خالَد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد البقية المتبقية من جيش الرماة، ثم انقض خالد على المسلمين من خلفهم، فانقلبوا على المسلمين، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، فهرب الكثير منهم، والرَّسُولُ يدعوهم فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَصَاب المشركون من المسلمين سَبْعِينَ١ .

وهكذا حدثت المصيبة .. بسبب :

١ – مخالفة تعليمات القائد الأعلى (النبي ﷺ)

٢ – مخالفة تعليمات القائد المباشر (عبد الله بن جبير رضي الله عنه)

٣– عدم الصبر على السراء (فلم يطيقوا الانتظار والغنائم تجمع أمام أعينهم)

٤ – الانشغال بالدنيا وغنائمها بدلاً من الانشغال بالغايات السامقة للجهاد

المطلب التاسع : تجريم التمثيل بجثث القتلى :

أعلن أبو سفيان انتصاره على المسلمين قائلاً : "يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي !"٢ .

وقد أعمل المشركون التمثيل والإهانة بجثث الشهداء، فبقروا البطون، وجدعوا الأنوف، وقطعوا الآذان وذبحوا الفروج .

ونظر المسلمون فإذا حمزة٣ قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها٤ .

أما الإسلام، فقد نهى عن المثلة وحرمها، كما ثبت ذلك بأحاديث شتى٥ .

ففي حديث بريدة: أن النبي ﷺ كان يقول لقواده: "اغزوا ولا تغُلوا ولا تغدروا ولا

---

١ المصدر السابق

٢ المصدر السابق

٣ وهو يومئذ بن تسع وخمسين سنة، كان أسن من رسول الله، ﷺ، بأربع سنين(ابن سعد ٣ / ١٠)

٤ ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٨١

٥ انظر : يوسف القرضاوي : أحكام الأسرى في الإسلام، ملف على شبكة إسلام أون لاين . نت

تمثلوا"١.

وعن عمر بن عبد العزيز: كتب إلى عامل من عماله (ولاته): أنه بلغنا أن رسول اللهﷺكان إذا بعث سرية يقول لهم: "اغْزُوا بِاسْمِ اللهَّ فِي سَبِيلِ اللهَّ تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللهَّ لَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا " وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله والسلام عليك٢ .

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "أعفُّ الناس قِتْلةً: أهلُ الإيمان"٣ ومعنى هذا: أنهم يعفّون عن الانتقام من الموتى، والتمثيل بأعضائهم وجثثهم، فهذا يتنافى مع عفة أهل الإيمان.

وعن الهياج بن عمران: أن عمران أَبَق له غلام، فحلف بالله عليه: لئن قدر عليه ليقطعنّ يده، فأرسلني لأسال له، فأتيت سمُرة بن جندب فسألته، فقال: كان النبي ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المُثْلة"٤

ومن ثم التزم المسلمون في جميع حروبهم: أن يراعوا حرمة الموتى، ولا يتعرضوا لجثثهم بأي تشويه، ولهذا منع الخلفاء الراشدون نقل رؤوس المحاربين من قادة أعدائهم إلى خلفائهم، ليتشفوا بالنظر إليها.

وعن عبد الله بن عامر أنه قدم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه برأس البطريق، فأنكر ذلك، فقال: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون ذلك بنا! قال: فاستنان بفارس والروم؟! لا يحمل إليّ رأس! فإنه يكفي الكتاب والخبر٥. اهـ.

فانظر إلى هذا الموقف الرائع من الخليفة الأول: إنكار حمل الرأس إليه، وقوله: آستنان بفارس والروم؟ ينكر عليهم أن يتخذوا من تقاليد فارس والروم أسوة لهم، فقد جعلهم الله رؤوسا لا ذيولا، فهم يُتبعون لا يَتّبعون. ثم أصدر هذا الأمر الحاسم: "لا

---

١ مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (٣٢٦١)

٢ مالك بن أنس : الموطأ، كتاب الجهاد (١١)، وصحح الألباني نحو هذا الحديث في لإرواء (١٢٤٧ و ٧/ ٢٩٢) ، الروض النضير (١٦٧)

٣ سنن أبي داود، كتاب الجهاد ـ باب النهي عن المثلة(٢٦٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٢).

٤ سنن أبي داود، كتاب الجهاد ـ باب النهي عن المثلة(٢٦٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٢).

٥ ابن قدامة : المغني ١٠/ ٥٦٥

يحمل إليّ رأس"١!

وأُتي أبو بكر برأس، فقال: بغيتم! أي إن هذا من فعل أهل البغي والظلم لا من فعل أهل الإيمان.

قال الإمام الزهري: لم يؤت إلى النبي ﷺ برأس، وأُتي أبو بكر برأس فقال: لا يؤتى بالجيف إلى مدينة رسول الله ﷺ. وأول من أُتي برأس: ابن الزبير٢

وعلى هذا استقر الفقه الإسلامي، ورجحه المحققون من علمائه. يقول ابن عابدين في حاشيته: لو تمكن من كافر حال قيام الحرب: ليس له أن يمثل به٣.

واستثنى بعض الفقهاء: من كان مثَّل بالمسلمين، فيجوز أن يُمثَّل به قصاصا، استنادا لما فعله النبي ﷺ بالعُرَنيين٤. ولكن هذا لم يكن في الحرب، إنما هو حكم القضاء عليهم، بما قتلوا وسرقوا وعاثوا في الأرض فسادًا.

* * *

الفصل السادس

١ عبد الرزاق الصنعاني ٥/ ٣٠٦، والبيهقي : السنن الكبرى (٩/ ١٣٢).

٢ انظر: المصدر السابق

٣ حاشية ابن عابدين (٤/ ١٣١)

٤ متفق عليه- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (٢٧٩٥) وصحيح مسلم ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص (٣١٦٢) عن أنس بن مالك

obeikandl.com